علاقة البطالة بالتطرف الديني في المجتمع المصري

د. نادية توفيق محمود وافي (*)

مقدمة :

لعل أخطر ما يواجه المجتمع المصري من تحديات في السنوات الأخيرة يكمن في بطالة جزء غالي من ثروته الطبيعية متمثلة في البطالة بين أبنائه من خريجي الجامعات والمعاهد العليا والمدارس المتوسطة .

فالبطالة ظاهرة عالمية تعاني منها دول العالم المتقدم والنامي على حد سواء وأن كانت تختلف بين دولة واخرى من حيث حجمها وخصائصها وأشكالها .

ومشكلة البطالة في مصر تمثل تحدي هام لاستراتيجية التنمية البشرية فقد أدى عدم توافق معدلات النمو المرتفعة للسكان مع معدلات نمو التشغيل إلى وجود فجوة تمخضت عنها مشكلة البطالة في مصر .

ولكن مشكلة البطالة بين الخريجين ليس في حجمها المتزايد من تدفقات الخريجين سنويا فحسب ولكن في كونها تعتبر من أخطر أنواع البطالة اقتصاديا واجتماعيا بل وسياسيا أيضا . فالخطر الاجتماعي فيتمثل في استمرار شباب الخريجين في حالة تعطل أو إلحاقهم في وظائف غير منتجه وغير مجزية مما يولد في نفوسهم قدرا كبيرا من الإحباط والسخط ويعرضهم لتيارات الانحراف والتطرف .

(*) مدرس علم الاجتماع – كلية الدراسات الإنسانية – جامعة الأزهر

ويشير الواقع الراهن فى المجتمع المصرى ـ والعشر سنوات الماضية على وجه الخصوص ـ إلى مروره بعدة تحويلات حاسمة وتغيرات سريعة متلاحقة فى الهيكل البنائى له والعلاقات الاجتماعية والنظم الاقتصادية والسياسية والتربوية وانساقه الفكر والقيم الحضارية .

وفى عصر تتلاحق فيه الاكتشافات والابداعات التكنولوجية بسرعة مذهلة ، وتتشكل فيه التكتلات الاقتصادية العملاقة ، وتتصارع المصالح فى منافسة محمومة .

فى عصر مثل هذا .. لن تجدى المواجهات التقليدية لمشاكل التنمية .. ولن تكفى الحلول أحادية الجانب لمقابلة التحدى .. ولن يصمد للمنافسة إلا من يحتفظ بمبادرات وتوجهات إستراتيجية واضحة ومتنوعة فى مسيرة التقدم والنمو .

وإذا كانت مشكلة البطالة المصرية تعتبر أحد أهم معوقات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، فان الاستعداد لمواجهتها والسياسات والوسائل اللازمة لهذه المواجهة يجب أن تكون على قدر كبير من الدقة والفاعلية المناسبة لخطورة هذه المشكلة . علما بأن أعداد البطالة من المتعلمين والخريجين ، يعادل إن لم يكن يفوق أعداد البطالة من الأميين أو محدودى التعليم

فالبطالة مشكلة لها خطورتها إذ تجاوزت حدودا معينة إذ تمتد آثارها السلبية ليس فقط الى الجوانب الاقتصادية ولكن أيضا الى نواحى أخرى عديدة اجتماعية وسياسية .

فالبطالة لا تعبر فقط عن طاقة عاطلة فى الاقتصاد بسبب عدم تشغيل عنصر العمل بأكملة ولا تعكس استغلال غير كفء للموارد فحسب ، ولكنها تعنى ما هو أكثر من ذلك ، حيث تمر حياة أفراد المجتمع وتؤثر بشدة على سلوكهم وتصرفاتهم ومن هنا تنبع خطورتها ، مما يجعلها فى مقدمة المشاكل التى تستأثر باهتمام البلاد المختلفة .

ومشكلة البطالة تكمن خطورتها فى كونها مشكلة مركبة أى أنها ليست مشكلة اقتصادية ، فحسب ، وإنما مشكلة اجتماعية وسياسية أيضا بالدرجة الأولى ، وهى تهدد بقلاقل واضطرابات خطيرة على كافة المستويات ابتداءا من الفرد، ثم الأسرة ، فالمجتمع بأسره .

إن البطالة تعد من الناحية النفسية ذات تأثير سلبى . فالشعور بأن الإنسان غير قادر على المساهمة فى النشاط الاقتصادى يجعل الفرد يفقد احترامه لنفسه .

إن جزءا من الضياع الذى تعرض له شبابنا فى السنوات الاخيرة والذى دفع بعضهم إلى السخط والغضب هو أن طاقاتهم الهائلة لم تستوعب بشكل خلاق وبناء (١) .

فالتعطل يعنى من ناحية أخرى افتقاد الأمل فى المستقبل والثقة فى المجتمع والنظام القائم عليه ، مما ينعكس أثره على الافراد اما بزيادة السلبية، او الأنخراط فى نشاط الجماعات اليمينية المتطرفة . (٢)

فقد تزايدت فى الآونة الأخيرة ظواهر التطرف والعنف فى المجتمع ، الأمر الذى بدأ فى طياته مضمونا سلبيا على استقرار المجتمع وسلامه الاجتماعى . ويمكن ملاحظة زيادة أعداد الشباب المشارك فى هذه الاحداث،

مما يستدعى ضرورة دراستها علميا للتعرف على الأسباب التى ادت إليها ، والأساليب الكفيلة بمواجهة آثارها السلبية على المجتمع .

إن الأمر يهم جميع أفراد المجتمع ، وجميع هيئاته ومؤسساته إذ أنه يهدد المجتمع لا فى حاضرهم فقط ، وإنما فى مستقبلهم كذلك ، وتزداد خطورة الموضوع من ملاحظة أن المشاركين فى ظواهر التطرف أكثرهم من الشباب العاطلين الذين لا يجدون عملا .

لقد كانت مصر بلدا معتدلا وسطا ، وآمنا مسالما ، فلم تجد الخطوط المتطرفة فى العقيدة بيئة تعشش فيها بمصر حتى وإن فرضت عليها وكالمذهب الشيعى المتطرف الذى حاول الفاطميون نشره بمصر طويلا ولكن مالبث أن انقرض وزال بزوالهم . (٣)

وفى بحثنا هذا سنحاول أن نرصد العلاقة ما بين مشكلتين حقيقيتين تواجهان مسيرة التنمية الاجتماعية فى العقود الأخيرة وهما البطالة والتطرف الدينى .

وإذا كانت البطالة هى الرافد الأساسى الذى يغذى التطرف بكل تجلياته فإننا سنحاول أن نلقى بعض الضوء على الآلية التى يتم بها تحول الشباب فى اتجاه التطرف وما يستتبعه ذلك من نتائج مؤثرة فى كل مستويات الأداء الاجتماعى .

ولنبدأ بعرض بعض المفاهيم الأساسية لموضوع الدراسة .

مفهوم البطالة :

البطالـة Unemployment كمفهـوم يـنـاقض مفهـوم العمـل Work تعنى فائض العمالة داخل بناء النسق الاجتماعى أو الصنـاعى ، فحيث يكـون هناك فائض فى سوء العمل لايمكن لقوة العمل مـن توفير عـدد مـن الاعمـال تستوعب هذا الفائض تحدث ظاهرة البطالة ، والبطالة تكون بذلك على نقيض العمل ، لها وظائف سلبية فى حياة الفرد والجماعة ، حيث تـؤدى إلـى التفكك والصراع ، كما تعمل على اختـلال تـوازن البنـاء المهنـى والاجتمـاعى بوجـه عام .. (٤)

ومن ناحية أخرى يعـرف قـاموس العلـوم الاجتماعيـة معنـى البطالـة بأنها الحالة التى يكون فيها الشخص قادرا على العمل وراغبا فيه وباحثا عنـه ولكنه لايجده . وهـذا التعريـف يخـرج مـن البطالـة حـالات الإضـراب وعـدم العمل بسبب الاصابة والمرض . (٥)

والبطالة بوجه عام كما يرى جيمس وليـم James William هـى مشكلة الافراد أو العاملين الذين يريدون عمل ولكنهم لا يسـتطيعون الحصـول عليه . (٦)

مفهوم التطرف :

التطرف لغة كلمة مشتقة من " الطرف " بمعنى الناحية أو الطائفة مـن الشـيء وتطـرف أتـى الطـرف ، أو جـاوز حـد الاعتـدال ولـم يتوسـط (٧) والاستخدام الحديث لها يحمل نفس المعنـى حيث يشير الـى فـرد أو جماعـة اخذت طرفا أو ناحيـة مـن فكـر أو سـلوك علـى نحـو يخـالف مـا أجمـع عليـه المجتمع ، وما تعارف عليه معظم الناس .

والتطرف بمعناه البسيط جدا هو الخروج عن الوسط ، أو البعد عن الاعتدال أو اتباع طرق فى التفكير والشعور غير معتادة لمعظم الناس فى المجتمع والايمان العميق بصحة هذه الطرق وصلاحها والاستعداد للتضحية فى سبيلها . (٨)

فالتطرف ـ والتعصب ـ والعنف ـ والارهاب ـ والاغتراب . مصطلحات شاع استخدامها فى الاديبات الاجتماعية والنفسية والسياسية والتربوية التى تصدت لدراسة ظاهرة التطرف .

والتطرف هو التعبير عن ارتفاع مستوى التوتر لدى الفرد أو الجماعة نتيجة للشعور بعدم الطمأنينة ، مما يؤدى إلى التوتر وعدم تحمل الغموض الذى يؤدى فى النهاية الى تطرف الاستجابة . (٩)

إن علم الاجتماع يرى أن التطرف هو نوع من الجمود والانغلاق الفكرى لدى فرد أو جماعة من جماعات المجتمع خرجت بفكرها عن حد الاعتدال وعلى ما تواضع افراد المجتمع عليه واعتادوه من طرق فى التفكير والشعور .

مفهوم التطرف الدينى :

هو التعامل مع الدين بصيغة انتقائية تركز على التشديد كرد فعل لمشكلات اجتماعية معينة وقد يكون التطرف ناتجا عن الجهل بحقائق الدين ، كما يمكن أن ينتج عن جهد فقهى إنتقائى للتشديد من خلال منظور اجتماعى معين .

ومن ناحية أخرى لاينبغى أن ننخدع بظواهر الأشياء . فما قد يبدو تطرفا دينيا قد يكون فى الواقع صيغة أيديولوجية للتعبير عن أوجاع حضارية واقتصادية واجتماعية وسياسية تعانى منها شرائح معينة فى المجتمع أكثر من غيرها ، وبالتالى يصبح " التطرف " هو فقط صيغة واحدة من صيغ بديلة للاستغاثة والتعبئة والتحدى .

وبعد سردنا لبعض المفاهيم الأساسية لموضوع البحث . سوف أتناول بشىء من الايجاز بعض ما تتضمنه فصول الدراسة الحالية وما تطرحه من تساؤلات حيث اصبحت مشكلة البطالة من أكبر المشكلات التى يواجهها الشباب فى المجتمع المصرى . وعناء رحلة البحث عن عمل سواء بالسفر أو الاغتراب أو الهجرة الخارجية وأن لم يجد ، فلن يكون البديل الا فى التيارات التى تطرح نفسها على الساحة كالتطرف مثلا والانحراف بشتى صوره وأشكاله .

١ - البطالة كمصدر للاختلالات الاجتماعية :

إن العمل بالنسبة للشباب لا يعنى وسيلة لكسب العيش فقط ، ولا مجرد بذل جهد عقلى أو مادى للتأثير فى الاشياء المادية أو غير المادية للوصول الى نتيجة ما ، ولكن فى الحقيقة تفاعل بين الفرد وبيئة العمل ، يحاول الفرد من خلاله أن يحقق أهدافه ، وأن يشبع رغباته وحاجاته كالحاجة إلى الامن ، والحاجة الى التقدير الاجتماعى والتعبير عن الذات وتوكيدها ، وأن يجعل قيمه ومثله حقيقة واقعية ، وان يعبر الفرد عن دوافعه وصراعاته وقلقه بصورة مقبولة .

فإذا كان للعمل أهمية كبرى فى حياة الفرد هكذا .. فما الذى يحدث إذا لم يستطع ذلك الفرد الحصول على العمل الذى يناسبه ؟؟ .

لهذا تعتبر مشكلة البطالة هىالمشكلة الاولى لهذا الجيل من الشباب لما يترتب عليها من آثار كثيرة ، وأن طول فترة أنتظار الشباب لفرصة العمل التى تتناسب مع دراساتهم هى أهم أكبر أسباب معاناته وأنه لا يتعامل مع هذه الفترة بروح الصبر والتفاؤل ، وأنما بروح اليأس والاحساس بالاحباط ، وبالتالى أصبحت من أهم المشكلات ، بلى قد تكون على قمتها أختلال منظومة العمل الانتاجية التى من أهم عناصرها العمل كقيمة اجتماعية واقتصادية ايجابية يناقضها الوجه السلبى لها ، وهو التعطل عن العمل على المستوى الفردى والبطالة كمشكلة اجتماعية اقتصادية على المستوى القومى.(١٠)

ويفسر علماء الاجتماع هذه الحالة التى وصل إليها الشباب بأنها تعبير عن إنسداد شرايين الحراك الاجتماعى ، أى قنوات الترقى الطبيعى فى المجتمع .

مما يعنى أن البطالة تجاوزت ملامحها الأصلية من حيث عجز قطاع كبير من الشباب المتعلم عن الحصول على عمل لتصبح مصنعا لتغريغ التطرف بكل أشكاله وتجلياته مع ملاحظة أن التطرف هو موقف فكرى يتغلغل من كل أنواع السلوك الاجتماعى الذى ينشأ عن وجود طاقة حيوية عاجزة عن الاستثمار المتوازن فى كل محاور التنمية ومن ثم تصبح المصدر الأصلى لكل أنواع الانحرافات التى من أبرز أمثلتها المعاصرة الادمان والعنف والتطرف الدينى وعبادة الشيطان ... الخ .

٢- ما الذى يدفع بعض الناس الى التطرف :

طالما كان النظام الاجتماعى السياسى السائد فى أى مجتمع قادرا على مواجهة متطلبات الأغلبية الساحقة لأفراد الشعب واشباع احتياجاتهم الأساسية فلا خطر على هذا النظام من ظاهرة التطرف السياسى الجماعى المنظم . ولكن حينما يتعثر النظام القائم عن مواجهة المشكلات الداخلية أو الخارجية .. وحين يطول أجل هذا التعثر وتتفاقم تلك المشكلات .. فان اعدادا متزايدة من أفراد المجتمع تخلص الى أن هناك عطبا أساسيا إما فى جوهر وفلسفة النظام أو فى أدائه ، أو فيهما معا . ومن هنا يبدو أن البحث عن بديل يخرجهم ويخلص مجتمعهم من المشكلات المتفاقمة . وكلما اشتدت حدة المشكلات وتحولت الى ما يشبه الازمة أصبح البديل المطلوب مختلفا تماما عن النظام القائم . وكلما زاد اختلاف البديل المطلوب عما هو قائم وممارس بالفعل أصبحنا بصدد ما يسمى " بالتطرف " .

التطرف ـ اذن ـ هو مؤشر او انعكاس لتعثر النظام السياسى الاجتماعى فى مواجهة الازمات الداخلية أو الخارجية .

وتقول لنا نظريات علم النفس الاجتماعى أن الفشل يولد الاحباط وان الاحباط يخلق فى داخل الافراد شحنات انفعالية عدوانية . وأن هذه العدوانية الداخلية قابلة الى التحول الى عنف خارجى فردى وجماعى ..

ويصبح الحرمان لدى الشباب ـ طبعا ـ أكثر حده اذا كانت احواله لا تتحسن بينما تتحسن احوال الآخرين . ويشتد الحرمان اضعافا مضاعفة اذا كانت احواله تتدهور بينما أحوال الآخرين فى تحسن مطرد . الحرمان النسبى بدرجاته المختلفة ، يؤدى الى الاحساس بالسخط . وذلك بدوره يخلق لديهم

تهيؤا لاستقبال واعتناق الافكار الناقدة للنظام الاجتماعى السياسى ، والداعية للتمرد عليه ، والثورة ضده ، ويصبح الاستعداد للتطرف واستخدام العنف مسأله واردة تنتظر الظرف الملائم .

وواضح أن التوعية الدينية لا تسير فى الخط السليم منذ فترة طويلة ، ومن هنا نشأ ما نسميه الآن بالفراغ الدينى مما تسبب فى تورط بعض الشباب فى الجماعات المتطرفة .

ومطلوب الآن أن نراجع اسلوب التوعية الدينية على كافة المستويات: فى البيت ، فى المدرسة ، فى المسجد ، فى وسائل االاعلام ، على كل هذه الجهات أن تدرك أن ثمة خطرا يحدق بأولادنا .. وأننا إذا تداركنا هذا الخطر انما نحمى مجتمعنا كلة .

إن شبابنا المسلم .. سليم فى مجموعة ، ولكنه عرضة لأنواع من المزالق والانحرافات تصيب بعض أفراده . ومن الطبيعى عند كشفنا تلك الانحرافات ووضع أصبعنا على أخطرها وأكبرها ضررا أن نترجم أن جزء منها يرجع للبيئة التى يعيش فيها الشاب ، وجزء للشاب نفسه ، وليس من السهل الفصل بين الناحيتين . (١١)

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن ما أسباب ظاهرة التطرف والعنف التى يشهدها المجتمع حاليا ؟ .

أولا: هل سبب الظاهرة هو أن البيت أو المدرسة أو الجامعة أو وسائل الإعلام لاتقوم بواجبها كما ينبغى .. وأن ذلك هو المسئول عن تطرف الشباب..

ثانيا: هل هناك حقا فراغ دينى أو رياضى أو ثقافى لدى بعض شبابنا دفعة الى التطرف والانضمام فى صفوف هذه الجماعات المتطرفة ؟

ثالثاً: ولماذا ينخرط شباب من صلب المجتمع ، ومن أحسن عناصره المتفوقة دراسيا ومن أكثر طبقاته حيوية ونشاطا ...

لماذا ينخرط مثل هذا الشباب فى جماعات دينية متطرفة تلجأ الى العنف والارهاب ؟

رابعاً: وأين دور المؤسسات الدينية المختلفة فى اعداد الانسان الصالح الذى ينبذ التطرف والارهاب ، وفى وقاية المجتمع من مثل هذه الظواهر المرضية الوافدة ومواجهتها بشكل قوى.

٣- لماذا ينتج عن بطالة المتعلمين اتجاهها الى التطرف الدينى ؟

إن شعب مصر من اشد شعوب العالم الإسلامى تدينا لدرجة أنه حتى الأسر التى لم تلتزم بالعبادات كاملة قد وقر فى ضميرها الثوابت الاساسية للمفاهيم الدينية الراسخة .. ومن الطبيعى حين يواجه الانسان المصرى مشكلة مصيرية مزلزلة من نوع فقدان العمل والدور الاجتماعى وتحقيق الذات وغيرها أن يهرع الى الدين وهنا تتفاوت المواقف طبقا للمصدر الذى يتلقى الانسان منه دينه فى خلال الازمة وفى الغالب فان ذلك المصدر يكون سطحيا أو جاهلا أو فى أحسن الفروض متعمقا يتناول الدين بطريقة انتقائية متطرفة ، والمشكلة ان كل من يعرض الدين يعرض رؤيته باعتبارها غير قابلة للمناقشة من حيث أنها رؤية دينية وعلى المتلقى أما أن يقبل الرؤية أو يرفضها .

وفى الغالب فان القبول يعنى بداية تحول الانسان الى دائرة التطرف بكل آثارها وتفاعلاتها . ..

ولنتأمل معا بطريقة تحليلية متأنية التأثيرات الاجتماعية لتحول الانسان فى حال البطالة الى التطرف بأشكاله المختلفة .

ففى ميدان الفلسفة وعلم الاجتماع تستخدم كلمة التطرف Dogmatism لتشير الى حالة الجمود العقائدى أو الانغلاق الفكرى ومن ثم يكون التطرف بهذا المعنى اسلوبا للتفكير يتسم بعدم القدرة على تقبل أيه معتقدات تختلف عن معتقدات الشخص أو الجماعة أو التسامح معها . (١٢)

والآن نتساءل ما مظاهر التطرف والعنف التى يشهدها المجتمع المصرى حاليا ؟ ... واسئلة آخرى ومحاور عديدة تطرح نفسها من خلال موضوع بحثى الراهن .

وهو ما سأتناوله بقدر كاف من التفصيل فى فصول عديدة من البحث تدور كلها حول علاقة البطالة بالتطرف الدينى فى مجتمعنا المصرى .. وفى النهاية سأقدم اجتهاداتى لتقديم عوامل وأساليب لمواجهة هذه الظواهر التى طفت على سطح المجتمع فى السنوات الاخيرة من خلال عدة محاور سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية ودينية .. مع مناقشة خطورة الاقتصار على المواجهة الامنية لتلك المشكلة .

المراجع

١- سعد الدين ابراهيم : مصر تراجع نفسها ، الطبعة الأولى ، دار المستقبل العربى،القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٥٩ .

٢- سميحة السيد فوزى : سياسة مواجهة مشكلة البطالة فى مصر ، المؤتمر الاول لقسم الاقتصاد ـ جامعة القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ١ ، ٢ .

٣- جمال حمدان : شخصية مصر : دراسة فى عبقرية المكان (كتاب الهلال ٥٠٩) القاهرة ، دار الهلال ١٩٩٣ ، ص ١٧٨ ، ١٨٩ .

٤- كمال الزيات : علم الاجتماع المهنى ، القاهرة ، دار نهضة الشرق ، ١٩٨٩ .

٥- أحمد زكى بدوى : معجم مصطلحات العلوم االاجتماعية ص ٤٣٤ .

6 -(2) James William Coleman & Donald R . Gressey Social Problems, Harpar & Row, Publishers. N.Y., 1987 P. 630 .

٧- مجمع اللغة العربية ـ المعجم الوسيط ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، شركة الاعلانات الشرقية ، ١٩٨٥ الجزء الثانى ، ص ٥٧٥ .

٨- سعد الدين ابراهيم : مصر تراجع نفسها ، مرجع سابق ، ص ٢١ .

٩- معتز سيد عبد الله : الاتجاهات التعصبية (سلسلة عالم المعرفة ـ ١٣٧) الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب (١٩٨٩) ص ٨٠ ، ٨١ .

١٠- شادية أحمد مصطفى عمران : البطالة وعلاقتها بالاغتراب بين شباب الخريجين ـ دراسة تتبعية على عينه من خريجى جامعة اسيوط ـ فرع سوهاج فى الفترة ما بين ١٩٨٩ الى ١٩٩٣ م دكتوراة ، جامعة اسيوط ، ١٩٩٣ ، ص ٤ .

١١- التوجية الإسلامى للشباب (من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية) الشركة المصرية للطباعة والنشر ، ١٩٧١ ، ص ١٩٣ .

١٢- سمير نعيم أحمد : المحددات الاقتصادية والاجتماعية للتطرف الدينى : حالة مصر ، فى المستقبل العربى ع ١٣١ (يناير ١٩٩٠) . ص ١١١ ، ١١٢ .